مكتبة الهمّة
الدولة الإسلامية

شرح الصدور

بتحريمِ البناءِ على القبور

١٤٣٥ هـ

رسالة

للإمام الشوكاني (رحمه الله)

باختصار

مكائد الشيطان للمسلمين، وأشد وسائله إلى ضلال العباد، حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، فيصير في عداد المشركين.

وقد يجعل الشيطان طائفة من إخوانه من بني آدم يقفون على ذلك القبر، يخادعون من يأتي إليه من الزائرين، فيهولون عليهم ويصنعون أموراً من أنفسهم، وينسبونها إلى الميت، وقد يصنعون أكاذيب مشتملة على أشياء يسمونها كرامات لذلك الميت، ويبثونها في الناس، ويكررون ذكرها في مجالسهم، وعند اجتماعهم، فتشيع وتستفيض، ويتلقاها من يُحسن الظن بالأموات، ويقبل عقله ما يروى عنهم من أكاذيب، فيرويها كما سمعها، ويتحدث بها في مجالسه، فيقع الجُهَّال في بَلِيَّة عظيمة من الاعتقاد الشركي، وينذرون على ذلك الميت كرائم أموالهم، ويحبسون على قبره من أملاكهم ما هو أحبها إلى قلوبهم، لاعتقادهم أنهم ينالون بجاه ذلك الميت خيراً عظيماً وأجراً كبيرا، ويعتقدون أنَّ ذلك قربة عظيمة، وطاعة نافعة، وحسنة متقبّلة، فيحصل بذلك مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر.

وإنهم إنما فعلوا تلك الأفاعيل وهولوا على الناس بتلك التهاويل، وكذبوا تلك الأكاذيب، لينالوا جانباً من الحطام من أموال الطغام، وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبليسية تكاثرت الأوقاف على القبور، وبلغت مبلغاً عظيما، حتى بلغت غِلَّات ما يُوقف على المشهورين منهم ما لو اجتمعتْ أوقافه لبلغ ما يقتاته أهل مدينة كبيرة من مدن المسلمين! ولو بِيعتْ تلك الحبائس لأغنى الله بها طائفةً عظيمة من الفقراء!

فانظر إلى أين بلغ تلاعب الشيطان بهؤلاء؟ وكيف رمى بهم هُوَةً بعيدة القعر، مظلمة الجوانب! وهذه مفسدة من مفاسد القبور وتشييدها، وزخرفتها وتجصيصها، والصلاة فيها، وما خُفيَ كانَ أعظم.

ومن المفاسد البالغة الأثر لبناء القبور إلى حدٍ يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أمِّ رأسه من أعلى مكان الدين: أنَّ كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقرباً به إليه، راجياً ما يضمر حصوله له منه، فيهلُّ به لغير الله، ويتعبد به لوثن من الأوثان! إذ أنه لا فرق بين نحر النحائر لأحجارٍ منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبرٍ لميت يسمونه قبراً..

ونختمُ الكلام بما حكاهُ ابنُ القيم عن شيخه ابن تيمية -وهو الإمام المحيط بمذهب سلف هذه الأمة وخلفها- أنه "قد صرّح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد على القبور".. فانظر كيف حكى التصريح عن عامة الطوائف؟ وذلك يدل على أنه إجماع من أهل العلم على اختلاف طوائفهم..

والحمد لله الذي هدانا للحق ووفقنا لاتِّباعه

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «قَاتَلَ اللَّهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وفي رواية لأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): «لَعَنَ اللَّهُ اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ثم قالت عائشة: "ولولا ذلك لأُبرز قبرُه، غير أنه خشي أن يكون مسجدا".

وأخرج الإمام أحمد في مسنده بإسناد جيد، من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إنَّ من شرار الناس مَنْ تدركهم الساعة وهم أحياء، الذين يتخذون القبور مساجد».

وفي صحيح مسلم عن أبى الهياج الأسدي قال: "قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أنْ لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته".

وفي هذا أعظم دلالة على أنْ تسوية كل قبر مشرف يرتفع زيادة على القدر المشروع واجبةٌ متحتمة، ومن إشراف القبور: أن يُرفع سمكها أو يجعل عليها القباب أو المساجد، فإنَّ ذلك من المنهي عنه بلا شك ولا شبهة، ولهذا فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث لهدم القبور علياً (رضي الله عنه)، ثم بعث أميرُ المؤمنين عليٌ لهدمها أبا الهياج الأسدي في أيام خلافته.

وأخرج الترمذي وصححه من حديث جابر (رضي الله عنه) قال: "نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يجصَّصَ القبر، وأن يُبنى عليه، وأن يوطأ".

وفي هذا تصريح بالنهي عن البناء على القبور، وهو يَصْدُق على ما بُني على جوانب حفرة القبر، ويصدق على من بني قريباً من جوانب القبر كذلك، كما في القباب والمساجد والمشاهد الكبيرة، على وجه يكون القبر في وسطها أو في جانب منها، فإن هذا بناء على القبر، لا يخفى ذلك على من له أدنى فهم، كما يقال: بنى السلطان على مدينة كذا، أو على قرية كذا سوراً.

وإذا تقرّر لك هذا علمتَ أنَّ رفع القبور ووضع القباب والمساجد والمشاهد عليها قد لَعَنَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فاعلَه تارةً، وتارةً شدّدَ غضبَه وغضبَ الله على القوم الذين يتّخذونَ قبور أنبيائهم مساجد، وتارةً بعث من يهدمها، وتارةً جعله من فعل اليهود والنصارى الملعونين، وتارةً قال: «لا تتخذوا قبري وثنا» وتارةً قال: «لا تتخذوا قبري عيدا» أي: موسماً تجتمعون فيه كما صار يفعله كثير من عبّاد القبور! يجعلون لمن يعتقدون من الأموات أوقاتاً معلومة يجتمعون فيها عند قبورهم، ينسكون لها المناسك، ويعكفون عليها، كما يُعرف ذلك من أفعال هؤلاء المخذولين، الذين تركوا عبادة الله الذي خلقهم ورزقهم ثم يميتهم ويحييهم، وعبدوا عبداً من عباد الله، صار تحت أطباق الثرى، لا يقدر على أنْ يجلبَ لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرا.

ولاشك ولا ريب أنَّ السبب الأعظم الذي نشأ منه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زيّنه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور، وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل حُسن! فإنَّ الجاهل إذا وقعتْ عينُه على قبر من القبور وقد بُنيتْ عليه قبّة، ونظر على القبور الستور الرائعة، والسُّرُج المتلألئة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبُه تعظيماً لذلك القبر، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه تعظيم هذه المظاهر المقيتة التي هي من أعظم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله المطهرين وصحبه المكرمين، وبعد:

فاعلمْ أنه إذا وقع الخلاف بين المسلمين في أنَّ هذا الشيء بدعة أو غير بدعة، أو مكروه أو غير مكروه، أو محرم أو غير محرم، أو غير ذلك، فقد اتفق المسلمون سلفُهم وخلفهم من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا أنَّ الواجب عند الاختلاف هو الرد إلى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله، والناطق بذلك هو الكتابُ العزيز القائل: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول}.

والمسألة التي لهجَ بالكلام فيها أهلُ عصرنا ومصرنا في هذه الأيام: مسألة رفع القبور، والبناء عليها، والتبرك بالصلاة فيها..

وللتفصيل في هذه المسألة نقول وبالله التوفيق:

اعلمْ رحمك الله أنه قد اتفق الناس، سابقُهم ولا حقُهم، أولهم وآخرهم من لدن الصحابة (رضوان الله عنهم) إلى هذا الوقت: أن رفع القبور والبناء عليها والصلاة إليها بدعة من البدع التي ثبت النهى عنها واشتد وعيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لفاعلها، ولم يخالف في ذلك أحدٌ من المسلمين أجمعين.. لكنه وقع لبعض المتأخرين مقالةٌ بأنه لا بأس بالقباب والمشاهد على قبور الأنبياء والأولياء والفضلاء! وسبحانك اللهم هذا بهتانٌ عظيم!

فإذا أردتَ أن تعرف: هل الحق مع ما قاله هؤلاء أو ما قاله غيرُهم من أهل العلم، فالواجب عليك ردُّ هذا الاختلاف إلى ما أمرنا الله بالرد إليه، وهو كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

فإن قلتَ: بيّنْ لي هذا الرد حتى يتضح الحق، ويتميّز المصيب من المخطئ في هذه المسألة؛ قلتُ لكَ: افتحْ لما سأقوله سمعاً، واتخذ له فهماً، وأرهف له ذهناً:

كان أول مَنْ اتّخذ قبورَ الصالحينَ مساجدَ هم قومُ نوح (عليه السلام)، قال سبحانه: {قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا، ومكروا مكرا كبارا، وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا}، وهؤلاء الرجال (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ثم عبدتهم العرب بعد ذلك [رواه البخاري].

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) أنَّ أم سلمة (رضى الله عنها) ذكرت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كنيسةً رأتها بأرض الحبشة، وذكرتْ له ما رأتْ فيها من الصور، فقال لها: «أولئك قومٌ إذا مات فيهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شِرار الخلق عند الله».

وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يموت يقول: «ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».